الجرائد
في القطر المصري

من ورد الديار المصرية في هذه الايام ورأى ان في القاهرة وحدها ما ينيف على خمسين جريدة بين يومية واسبوعية وشهرية وغير ذلك ثم قابل بين حالها اليوم وما كانت عليهِ من زُهآء عشرين سنة حين لم يكن فيها الاّ جريدة واحدة هي الجريدة الرسمية تبين المسافة التي جازها هذا القطر في هذه المدة اليسيرة وما حدث في نفوس اهلهِ من النهضة الادبية واقبال القرّآء منهم على المطالعة واقتباس الفوائد من خلال السطور وما نجم فيهِ واجتمع اليهِ من الكتّاب والمنشئين وانما يُجلَب الى كل سوقٍ ما ينفق فيها

لا جرَم ان هذا من سريع الانتقال الذي قلّ ان تجد لهُ نظيرًا في تواريخ الامم مما يدلّك على وجود الاستعداد الفطريّ في الامة تنزع بهِ الى قديمها وان عنصر تلك النفوس النبيلة والاذهان النيرة ما زال متسلسلاً في دمآء الخلَف كامناً في طبائعهم متأهباً للظهور اذا صادف ما ينبههُ كالنار تظهر عند الاقتداح . بيد انك اذا تفقدت تلك الجرائد وجدت اكثرها بعيدًا عن المنزع الذي تقتضيهِ حالة القطر غير متلقٍّ تلك النهضة بما يرفع الامة من كبوتها ويقتادها في الوجهة التي هي طريق سعادتها وفلاحها لان اكثرها على تعدّد نزعاتها واختلاف مذاهبها لا خطة لها الاّ احاديث السياسة ومزاعم اربابها تتلو على القرّآء في هذا القطر ما يُتحدَّث بهِ في مجالس لندرا وبرلين وما يتخرص بهِ سياسيّو باريز وبطرسبرج ونقصّ عليهم تفاصيل

المواقع الحربية بين الصين واليابان وشروط الصلح بين اسبانيا والولايات المتحدة الى غير ذلك مما لا يهمّ المصريّ في حالتهِ الحاضرة الوقوف على شيءٍ منهُ ولا هو في شيءٍ من حاجاتهِ ومصالحهِ فضلاً عن ان هذه المباحث انما هي من غايات المدنية لا من مبادئها وانما تتلقاها الامّة بعد ان تستوفي قسطها من ضروريات العلم وتستعدّ لفهم ما يُلقى اليها من ذلك بعد معرفة المقدمات التي تفيد تصوّرهُ . وياليت شعري ما الذي يقع في ذهن العامّي من مكاشفتهِ باسرار الممالك وسياسات الدول وافكار الوزرآء والقوّاد وهو لم يسمع من امر تلك الممالك الاّ بأسمآئها ولم يقف على شيءٍ من تواريخها وسائر احوالها وكيف يستطيع ان يتمثل وقائع حربٍ بين امتين وهو لا يعلم موقع بلادهما من الارض واذا سردت عليهِ اسمآء بعض الاماكن التي حدثت فيها تلك الوقائع لم يعلم في ايّ البلادين هي وهل هي اسمآء ثغور ام جزر ام سفن ام قوّاد

ثم على تسليم ان ذلك كلهُ سائغ وان المقصود بهِ الفئة المتنورة من الامة وهي اقلّ من القليل فما الداعي الى وجود عشراتٍ من الجرائد تكرّر الخبر الواحد مع وحدة المشتركين في اكثرها على ما هو معلوم وايّ منفرٍ للذوق وداعٍ لكساد الصحف وسقوط الرغبة في مطالعتها اعظم من ان يرى المطالع الخبر الواحد في جريدتين او ثلاث او خمس وكثيرًا ما يكون ذلك الخبر بالعبارة الواحدة لانهُ في جميعهنَّ معرَّب عن جرائد الاجانب حتى ما يتعلّق بسياسة القطر نفسهِ . . ولا نقول ذلك على جهة التنديد بجرائدنا ولا كتّابنا ملومون فيهِ لما هو معلوم من بُعد مواقفهم عن المراكز

السياسية بل خروج البلاد بأسرها عن معترك اهل السياسة العامّه والخاصة والقضآء عليها بان تكون تبعاً لما يراد بها لا لما تريد . . بل في اوربا نفسها لا نجد من اقطاب السياسة في اصحاب الجرائد وغيرهم الاّ نفرًا معدودين ممن ترشحوا لها ونشأوا على دراستها وانفقوا ايامهم في مخالطة اهلها والوقوف على ابواب مجالسها مع تلقُّن اسرارها من دهاقنتها واصحاب العقد والحل فيها ولذا ترى كلمة الجريدة المعتبرة منها يرنّ صداها في مسامع كبرآء الارض واعاظم ملوكها ووزرآئها لعلمهم بانها صادرةٌ من مقام هو ورآء مقام كاتبها واسمى منهُ كثيرًا . فما الذي يبلغ اليهِ كتّابنا من مثل ذلك وما عسى ان يكون علم السياسيّ منا ورأيهُ وهذه اخبار النظارات وهي بين ظهرانيهم لا يكادون يتعلقون بالنبأ التافه منها الاّ استراقاً او استشفافاً من ورآء حجاب وهذه اخبار مواقع السودان وهي متصلةٌ بمصر وفيها جيش مصر واموالها تتناولها جرائدنا عن جرائد انكلترا او غيرها فلا تصلها الاّ بعد ان تقطع البر وتخوض البحر وتأتيها عن طريق هو ابعد من السودان بمراحل . فاذا كان هذا الشأن في السياسة الخاصة واخبار وقائع القطر وما جاورهُ وهي تهم كل فردٍ من افرادهِ فما الظن بسياسات الدول العظام والممالك القصيّة وايّ مجالٍ لنا فيما ينوي منها سياسيّو اوربا وما يقدّرونهُ من تصريفها في انحآء المعمور وما يخططونهُ منها للمستقبل وفي بعيد الاقطار

ثم اين نصيب العاميّ من تلك الجرائد وعليهِ اكثر رواجها وحزبهُ هو العدد الاكثر من مشتركيها وهل يكتفي منها بما تسردهُ بعد ذلك من خبر زفافٍ اونعيّ وما يقع في البلاد من قتل او سرقة وما يتوخاهُ

الكاتب او المكاتب من اطرآء بعض ذوي الشأن لغرضٍ في النفس او الوشاية ببعض المستخدمين حقًّا او زورًا او الاعلان بنقل حانوت فلان وضياع ختم فلان او ما أُولع بهِ بعض تلك الجرائد من نفث سموم التعصب والشقاق . . اين الكلام فيما ينمي ثروة البلاد والبحث فيما تُصلح بهِ عناصر تربتها ويزكو ما فيها من زرع وضرع ومتى رأينا فيها حضًّا على احيآء الصنائع او كلامًا في بعض فروعها او ترغيبًا للمتمولين في انشآء المعامل والاستغناء بها عن المصنوعات الاجنبية . ثم اين الفصول المطوَّلة في تهذيب اخلاق العامة واصلاح آدابها وعوائدها على كثرة ما فيها من المفاسد والموبقات والتنبيه على ما الفتهُ من سوء التربية الحسية والمعنوية مما فشت بهِ العاهات والآفات وتفاقمت الرذائل والمنكرات ومن تصدّى لتنوير اذهانها بما يكشف عن بصائرها ظلمات الاوهام والاضاليل وما رسخ في عقولها من الخرافات والاباطيل التي يتناولها الخلف عن السلف حتى صارت كالحيوان الاعجم او اضلّ سبيلاً

لكنك تجد كل ما هناك من الخلل في احوال الامة والفساد في اخلاقها وآدابها مسكوتًا عنهُ لا تكاد تذكرهُ الجرائد الاّ عندما تلطخ وجوهها بشيءٍ من سيئات بعض الجهلة وما يجري على ايديهم من المنكرات والفظائع ثم لا تجريه لهُ من بعدُ ذكرًا ولا تتنبّه لشيءٍ تُدخلهُ على نفوس قرّائها وتدعوهم للتنبُّه اليهِ والتضافر عليهِ سوى ما أومأنا اليهِ قبلُ من الطامة التي سال سيلها في البلاد وامتدّت بها اعراق الشرّ والفساد ألا وهي ما أُولع بهِ بعض الصحف الحالية من دسّ روح الشقاق في صدور الامة

وايقاد نيران التعصب الديني الذي هو احدى آفات الشرق بل اعظم اسباب ما لحق بهِ من الدمار والاضمحلال ومنبع ما انبثق عليهِ من الشؤم والوبال كأن تلك الصحف لم تجد في كل ما ذكرناهُ من المفاسد المحيقة بالبلاد ما هو حقيقٌ بان تتداركهُ بالتعديل والاصلاح سوى هذه المصافاة بين القلوب ترميها بالمنافرة والشقاق وهذه الهوادة في الدين تبدلها بالتعصب والتحمس على ما بين القوم من التلازم والجوار وعلى ما ببعضهم من الجهل والتهوُّر وأنهم ليس عندهم من معرفة حدود الدين والائتمار باوامر العقل ما يقف بهم عند حدّ الرفق والاعتدال وكانها لا ترى في كل ما ناب البلاد من التأخر والوهن والتهافت في دركات الخمول والهوان والانغماس في ردغات الذلّ والفقر مصرفاً لتلك الاقلام عن هذا السبيل الذي يزيد الامة على وهنها وهناً ويفتّ في اعضاد جامعتها ويوهن ركن [illegible] ويفصم عروة اجتماعها ويقذفها في هوّة الخراب . فدسّت هذه الافة في صدور السواد الكبير من اهل هذه الديار على كونهم من سنواتٍ قلائل وبعبارةٍ اخرى من قبل انتشار تلك الجرائد بينهم كانوا غافلين عن هذه المفسدة لا يعرف احدهم الاّ ما يعالجهُ من تربة ويبذرهُ من زرع ويربيهِ من حيوان ويأويهِ اليه من مسكنٍ وعيال ويرى جارهُ فلا يتوهم فيهِ الاّ الانس والمصافاة والتعاون على الدهر حتى جاءهم من حرّك فيهم ذلك الساكن ثم لم يزل بهِ يوماً بعد يوم وشهراً اثر شهر حتى عصف إعصارهُ في القلوب وثار غبارهُ في العيون فاظلم بهِ الجوّ بين الرجل وجاره [illegible] القوم بينهم النظر الشزر واستحكم بينهم الشنآن على غير جناية ولا اثم واصبح لبعضهم عند البعض ثاراتٌ لا يعلمون

ما هي وان شعروا منها بحزازاتٍ لا تُشفى وجراحٍ لا تبرأ

ومعلوم ان للجرائد اثبت تأثير في نفوس قرّآئها لانها الجليس الدائم والعشير الملازم يقرأها الرجل في ناديهِ ويأنس بها في خلوتهِ ويختلف اليها في اوقات فراغهِ ويتكرر عليهِ حديثها في كل يوم حتى تنطبع حروفها في مخيّلتهِ وترتسم الفاظها على اسلة لسانهِ فاذا تكلم نطق بما تتلو عليهِ واذا تراجت خواطرهُ لم يمرّ بها الاّ ما تلقن من اقوالها الى ان تنتقش خطتها في صفحة اعتقادهِ ويسترسل اليها برأيهِ وهواهُ ولا سيما اذا لم يسبق اليهِ من العلم ما يزاحم آرآءها ولم يكن بين يديهِ ما ينصرف الى تلاوتهِ دونها بحيث تكون هي المورد الوحيد الذي تستمدّ منهُ بصيرتهُ فان ما يرد عليهِ منها يمتزج باجزآء نفسهِ ويرسخ فيهِ رسوخ طباعهِ حتى يصير من الضروريات التي لا تقبل الزوال ولا تعترضها الشبهات

وهذا الذي ذكرناه هو الغالب على اهل هذا القطر لما انهم قومٌ غالبهم على الفطرة لم يقفوا على شيءٍ من احوال الامم وسياساتها وآدابها الاجتماعية فاذا وقع الى احدهم حديث احدى الجرائد كان ذلك اول ما يخرج اليهِ من المباحث المتداولة بين اهل طبقات المجتمع والحلوّهِ من أداة الحكم في صحة ما يُلقى اليهِ مع اعتقادهِ العلم والاخلاص في كاتب تلك الجريدة لا يتوقف عن الاسترسال الى ما يتلوهُ فيها من غير ان يتطرّق اليهِ ادنى ريب وحينئذٍ فمن البديهي ان ما انطوت عليهِ تلك الجريدة ان كان خيرًا ثبت ذلك الخير في طبائع قارئيها واقتبسته ملكاتهم وتمثلت صورتهُ في نفوسهم واخلاقهم وافعالهم فكانوا محلاً للخير وقدوةً لهُ بين مواطنيهم واهل طبقتهم

والاّ كانت هي الشرّ المحض والبلآء الفاشي تقذف بمريديها في مهاوي الشرّ وتقتادهم في شعاب الغيّ والضلال وكانت كالجرب في الامة يعدي بعضها بعضاً . فليراقب كتّابنا الله فيما يملون على الامة وليعلموا ان ما يخطّونهُ في خلواتهم انما يجرون بهِ اقلامهم على صفحات قلوبٍ تنطبع فيها كلماتهم بحروفٍ لا تُمحى فليكن ما يطبعونهُ فيها للخير وليكونوا من هداة الامة الى الصلاح ليحسن اثرهم فيها ولا تلزمهم تبعتها يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون

وزد على ذلك ما تراهُ في بعض صفحات الجرائد عندنا من المثالب الشخصية والوقوع في الاعراض والتطاول على الاحساب والخروج الى الشتم والبذآء مما يفسد الاخلاق ويودي بالآداب ويهتك حجاب الحشمة ويجرّئ الاغرار والسفهآء على مقامات كبرآء الناس وذوي الحرمات منهم ومعلومٌ ان الجرائد انما وُضعت لتكون خادمةً لمصلحة الجمهور لا لمآرب اصحابها وانما يشترك فيها المشترك لفائدة يتناولها او ادبٍ يستمدّهُ لا ليتخذها نسخةً للمعايب والنقائص ولا ليكون مشايعاً لكاتبها في اهوآئهِ يجتذبهُ حيث شآء وشآءت اغراضهُ وانما ذلك بابٌ من ابواب التغرير والتدليس فضلاً عن كونهِ مضرًّا بالجرائد عامّةً صادًّا للقرّآء عن اقتباس ما فيها من الفوائد بما يبعث في نفوسهم من النفور عنها والاعراض عن مطالعتها فتبور بذلك المصلحة المقصودة منها وفضلاً عما فيهِ من اسقاط حرمة هذه الحطة الشريفة التي من اخص مزاياها ان تكون قيّمةً على الآداب العمومية ذائدةً عن الاحساب والاعراض كما انها قيّمةٌ على الاحكام ذائدةٌ عن المصالح والحقوق . بل لا جرَم ان مثل هذه الصحف تُعدُّ لطخة عارٍ على الامة

باسرها لما لا يخفى من ان الجرائد عند كل قوم تُتخذ عنواناً على منزلتهم من العلوم والآداب والاخلاق والعادات لانها المرآة التي تتجلى فيها صُور هذه المعاني كلها وتتمثل بها درجة الكاتب والقارئ جميعاً لان الكاتب انما يكتب على مكانة علمهِ وذوقهِ وانما يختار من المباحث ما يعلم انهُ يقع من قارئهِ موقعاً مقبولاً والاّ سقطت جريدتهُ من نفسها فقُضي عليها بالاهمال

ولا نذكر هنا الجرائد التي نزعت عن هذه المناحي كلها الى ما لا يُعرَف لهُ منحىً من الخلط والهذيان والتكلم بالفاظ السكارى والحشاشين مما لم يسبق لهُ ضريبٌ في شيءٍ من بلاد الله ولا سُمع ان مثل ذلك الكلام مما يُكتَب ويُطبَع ويُنشَر وتباع الالوف منهُ في كل اسبوع الاّ في هذه البلاد بلاد الغرائب الاّ انها على كل حال اقلّ شرًّا من بعض الجرائد التي مرّت الاشارة اليها وان كانت خالية من المنافع

والحاصل أن الجرائد بما هي عليهِ من كثرة الانتشار والتداول بين ايدي القرّآء وتواصل ظهورها على الايام تُعدُّ من اعظم العوامل واثبتها اثراً في اخلاق المجتمع وعوائده ومعارفهِ وعقائدهِ وطبقات مداركهِ حتى في لغتهِ ووجوه التعبير عندهُ لانها بتكرارها على الذهن واللسان ترسخ عبارتها في ملكة قارئها كما ترسخ خطتها المعنوية في معتقدهِ حتى انهُ اذا رام الكتابة نزع بها الى اسلوب الجريدة التي الف مطالعتها وربما قلّدها عن غير قصد. بل قد رأينا اصحاب الجرائد انفسهم لكثرة ما يطالع بعضهم جرائد بعض قد تعاوروا انفاسهم بينهم وقلد بعضهم بعضاً حتى في اللحن والخطآء بحيث لا تكاد تجد كلمةً محدثة او تركيباً جديداً في واحدة من تلك الجرائد الاّ

تجدهُ بعد ايام قد انتشر في سائرها وأُلحق بتعابيرها الخاصّة مما اصبحت فيهِ تلك الجرائد في كثير من الفاظها واصطلاحاتها لغةً بحالها وانتشر كثيرٌ من الفاظها على السنة العامّة فيما يخوضون فيهِ من مباحثها. وهذا ولا ريب من جملة الآفات التي ينبغي تلافيها لعموم البلوى بها وسنذكر من ذلك الشيء بعد الشيء فيما يأتي من اجزاء هذه المجلة ان شآء الله

على اننا لا نعمم القول في شيءٍ مما ذكرناهُ في هذه المقالة فان بين كتّاب جرائدنا من الافاضل ورجال العلم والاخلاص من يرتفع بهم قدر الصحف ويحق الانتفاع بمسطورهم لولا ان فيهم قوماً من المتطفلين على مقامها العائثين في الامة بفساد آدابهم وزيغ خطتهم ممن كدروا مشربها واسقطوا منزلتها وكانوا عقبةً في طريق نفوذها وعلوّ كلمتها. ولقد سرّنا وايم الله ما انتشر في جرائد هذه الايام من ان الحكومة عندنا تنوي سنّ قانون للمطبوعات يتناول الجرائد على الخصوص ويقيّد اقلام العابثين بشرفها وآداب الامة ولا ريب ان التقييد في مثل هذا المقام خيرٌ من الحرّية فعسى ان تتمحض بعد ذلك للخير وتعتصب على ما يرفع شأنها بين القرّآء وفي عيون الحكومة نفسها فلا تكون مهملةً كما هي ليومنا الحاضر والله الهادي الى السبيل السوآء

حمام الزاجل

ويقال حمام الزجّال ايضاً عن الفارسيّ وهو الحمام الذي يُرسَل على بعد وقد زجلتهُ وزجلت بهِ وجآء من مزجلٍ بعيد. ولا تقل الحمام الزاجل فانهُ